

## المقدمة

منذ أن شرعت فى تقديم هذه الموسوعة قررت أن أقدم كل جزء بمقدمة بها أشارات إلى أهمية هذه النصوص، وأن هذه النصوص يمكن أن نطلق عليها ترسيبات الثقافة السلوكية، وهى تساعد بلا شك على خلق تواصل بين الأجيال فى أجواء من الهدوء وإمكانية التطور والتغيير فى أطار قيم المجتمع وتقاليد. كما حرصت أن أشير إلى أن هذه النصوص تقدم مادة ثرية للدراسات النفسية والإجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية وكافة أوجه النشاط البشرى بل وحتى المفاهيم الطبية..

ففى الجزء الأول أشرت إلى ضرورة الجمع الميدانى بعيدا عن تلك النصوص الموجودة فى المجموعات السابقة باعتبار أن الجمع الميدانى هو الإضافة الحقيقية للمجموعات السابقة فضلا عن ضرورة انتزاع النصوص من فم الزمن الذى يطوى كل شىء وتقديمها للأجيال اللاحقة.. وفى مقدمة هذا الجزء قدمت عرضا للمجموعات السابقة منذ نهاية القرن التاسع عشر بداية من مجموعة محمود عمر الباجورى وانتهاء بمجموعة من الأمثال نشرها دير الدومنيكان بالقاهرة، وهى مجموعة خاصة بأمثال الاسرة.. وتحدثت عن المصدر الميدانى لهذه النصوص وهى مدينة زفتى - مسقط رأسى ومثوى رفاتى عندما يحين الحين - وقلت إنها تتوسط تماما الوجه البحرى وتقع على الشاطئ الغربى للنيل فرع دمياط وهو ما يعنى أن هذه النصوص الشائعة تمثل قلب الريف بكامله أصدق تمثيل بريفه وحضره على السواء، ولا أبالغ لذا قلت أنها تمثل الوجه البحرى بكامله باستثناء الأطراف والشواطئ، فالاطراف تمثل البداوة والشواطئ تمثل مراكز الإحتكاك مع العالم الخارجى، وهما يمثلان شريحة ضعيفة لا تؤثر فى جسم الوجه البحرى ومعه القاهرة بملايينها. أى أن هذه النصوص تمثل مصر كلها على وجه التقريب..

وفي الجزء الثاني تحدثت عن الشروح التي أحقتها بالنصوص باعتبار أن هذه الشروح يمكن أن تفسر تيار العلاقات الإجتماعية ضمن الإيقاع اليومي للأحداث.. ، وبخصوص التصنيف فقد اعتمدت على أن المادة النصية هي التي تصنف نفسها بنفسها مع التركيز على الجانب الموضوعي الذي يستهدف النص، كما أبدت تساؤلا عن أهمية هذه النصوص في العصر الحاضر، عصر الإيقاع السريع والتغيرات الحادة وانتشار الاذاعة المسموعة والمرئية وسيطرتها على عقول الجماهير.. .

أما في الجزء الثالث فقد تحدثت بشيء من التفصيل عن أسلوب الجمع والشفافية ومشاكل النص الشفاهي الذي يخضع لقوانين الذاكرة، وهي تختلف من شخص إلى آخر ومن مكان إلى آخر ويخضع أيضا للمدة الفاصلة بين السماع والاسترجاع، وأيضا مشكلة الإضافة والإحلال والتلفيق إلخ، كما أشرت إلى مشكلة الغموض في القليل من النصوص وخاصة النصوص المحلية، وأيضا مشكلة التفسيرات المختلفة للنص وهو ما يفرض بالضرورة تسجيل كل التفسيرات الممكنة. وفي مقدمة هذا الجزء - الجزء الرابع - نستكمل بعض الأفكار والخواطر، وقبل هذا ترى من المناسب أن نشير إلى أفكار القدماء ونسجل بعضا من جهودهم في رصد الأمثال وتسجيلها.. .

\* \* \*

#### الأمثال في فكر القدماء؛

المعروف أن هذه النصوص تدخل ضمن الحركة الثقافية غير المتعمدة أو المقصودة لأنها تخرج عفو الخاطر وبشكل تلقائي وأقرب إلى الفطرة، كما أن المثل عبارة عن جملة أو جملتين ولا يصل إلى أن يكون مقالا أو قصيدة أو غير ذلك من مظاهر الأدب رغم ما يتميز به من كثافة المعنى وتركيزه، وربما كانت هذه الظواهر هي إحدى الأسباب التي دفعت العلماء للعزوف عن الإقتراب من هذا الموضوع أو الإهتمام به.. .

ولكننا نعتقد أن السبب الأهم في عزوف العلماء عن تسجيل هذه النصوص بالكثرة المناسبة لهذا التاريخ الممتد لمئات السنين هو أنهم - أي العلماء - يعيشون في

كنف الحكام وفى مستوى ثقافى خاص ويتعاملون . . ويتعايشون ضمن شريحة محدودة وليس لدى بسطاء الناس والعاديين ما يثير فضول العلماء . . يقول الجبرتى فى مقدمة كتابه/ تاريخ الجبرتى/ (١) «وفن التاريخ علم يندرج فيه علوم كثيرة لولاه ما ثبتت أصولها ولا تشعبت فروعها . . منها طبقات المناوى والقراء والمفسرين والمحدثين وسير الصحابة والتابعين وطبقات المجتهدين وطبقات النحاه والحكماء وأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأخبار المغازى وطبقات الصالحين ومسامرة الملوك من القصص والأخبار والمواعظ والعبر والأمثال وغرائب الأقاليم وعجائب البلدان ومنه كتب المحاضرات ومفاكهة الخلفاء وسلوان المطاع ومحاضرات الراغب . فهذه العناصر هى محل اهتمام العلماء وتلمح مصطلح «الأمثال» ضمن هذه الإهتمامات . . كما أن الإهتمام بالأمثال قديم حيث سجل العلماء أن ما جاءنا من العصر الجاهلى من آداب تتمثل فى الشعر والنثر والأمثال، ومع ذلك فإن ما سجله القدماء من نصوص الأمثال عبارة عن كمية من النصوص لا تناسب تلك القرون السابقة ولا تتكافأ مع الكم الضخم من نصوص الشعر والنثر . . وربما كانت هناك أسباب عديدة فى حاجة إلى دراسة . .

وأهم هذه الكتب هو كتاب «مجمع الأمثال» للميدانى (٢) الذى يقول فى مقدمته «طالعت من كتب أئمة الأعلام . . كتاب أبى عبيدة وأبى عبيد والأصمعى وأبى زيد وأبى عمرو وأبى فيد، ونظرت فيما جمعه المفضل بن محمد والمفضل بن سلمه حتى لقد تصفحت أكثر من خمسين كتابا ونخلت ما فيها فصلا فصلا وبابا مفتشا عن ضوالها زوايا البقاع . . ونقلت ما فى كتاب حمزة بن الحسن إلى هذا الكتاب . . وجعلت الكتاب على نظام حروف المعجم فى أوائلها ليسهل طريق الطلب على تناولها وذكررت فى كل مثل من اللغة والإعراب ما يفتح الغلق ومن القصص والأسباب ما يوضح الغرض ويسيق الشُّرْق مما جمعه عبيد بن شريه وعطاء ابن مصعب والشرقى بن القطامى وغيرهم . . وسميت الكتاب «مجمع الأمثال»

(١) تاريخ الجبرتى/ عبد الرحمن الجبرتى/ نشر مطبعة الأنوار للحمدية .

(٢) مجمع الامثال/ أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميدانى/ تحقيق محمد أبو الفضل

إبراهيم/ طبع الحلبى ١٩٧٨ . .

لاحتوائه على جميع ما ورد منها وهو ستة آلاف ونيف والله أعلم بما بقى منها،  
فإن أنفاس الناس لا يأتي عليها الحصر ولا تنفذ حتى ينفذ العصر» .

وجاء في كتاب «أدب الدنيا والدين» للماوردي<sup>(١)</sup> تعريفه للأمثال: «وللأمثال  
من الكلام موقع في الأسماع وتأثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها  
ولا يؤثر تأثيرها لأن المعانى بها لايحة والشواهد بها واضحة والنفوس بها وامقة  
والقلوب بها واثقة والعقول لها موافقة. . فلذلك ضرب الله الأمثال فى كتابه  
العزير وجعلها من دلائل رسله وأوضح بها الحجة على خلقه لأنها فى العقول  
معقولة وفى القلوب مقبولة .

ولها أربعة شروط أحدها: صحة التشبيه، والثانى: أن يكون العلم بها سابقا  
والكل عليها موافقا والثالث: أن يسرع وصولها للفهم ويعجل تصورها فى الوره  
من غير ارتياء فى استخراجها ولا كد فى استنباطها والرابع: أن تناسب حال السامع  
لتكون أبلغ تأثيرا وأحسن موقعا. فاذا اجتمعت لهذه الأمثال المضروبة هذه الشروط  
الأربعة كانت زينة للكلام وجلاء للمعانى وتدبرا للأفهام .

وجاء فى كتاب «المستطرف فى كل فن مستظرف» الأبيهي<sup>(٢)</sup> قوله «أعلم أن  
الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه وحلى بجواهره كتابه، وقد نطق  
كتاب الله تعالى وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها، ولم يخل كلام سيدنا رسول  
الله ﷺ عنها وهو أفصح العرب لسانا وأكملهم بيانا فكم فى إيراد وأصداره من  
مثل يعجز عن مباراته فى البلاغة كل بطل، وسنذكر أن شاء الله تعالى بعد ذلك  
نبذة من أمثال العرب المولدين والعامية»، وفى هذا المجال استعرض الأبيهي أمثال  
من كتاب الله تعالى وأمثال من الحديث النبوى الشريف، وأمثال العرب وأمثال  
العامية والمولدين، والأمثال من الشعر المنظوم والأمثال السائرة بين الرجال والنساء  
على حروف المعجم «كالآتى: أمثال كتاب الله ٥٢، أمثال الحديث النبوى ٣١،  
أمثال العرب ٩٩، وأمثال العامية والمولدين ٦٦، أمثال من الشعر ١٦٥ بيتا،

(١) أدب الدنيا والدين/ على بن محمد بن حبيب الماوردي توفي ٤٥٠هـ طبع ١٣١٦هـ/ هامش كتاب  
الكشكول للعالمى ص ٢٣١ .

(٢) المستظرف فى كل فن مستظرف/ شهاب الدين محمد بن أحمد أبى الفتح الأبيهي ت ٨٥٠هـ - نشر  
مكتبة الجمهورية . .

والأمثال السائرة بين الرجال والنساء ٣٥٤ مثلاً، والمجموع ٧٦٧ مثلاً، وهى مليئة بالأمثال التى ظلت شائعة حتى هذه الأيام مما سوف نشير إليه بعد قليل . .

أما كتاب «العقد الفريد»<sup>(١)</sup> لابن عبد ربه الأندلسى فقد أفرد فصلاً كاملاً عن الأمثال جاء فيه: «نحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى الأمثال التى هى وشى الكلام وجوهر اللفظ وحلى المعانى والتى تخيرتها العرب وقدمتها العجم ونطق بها فى كل زمان وعلى كل لسان، فهى أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة، لم يسر شىء مسيرها ولا عم عمومها حتى قيل «أسير من مثل» وقال الشاعر .

### ما أنت إلا مثل سائر يعرفه الجاهل والخابر

وقد ضرب الله عز وجل الأمثال فى كتابه وضربها الرسول ﷺ فى كلامه . قال الله عز وجل «يا أيها الناس ضرب مثلاً فاستمعوا له» . . وقد رتب المؤلف أمثاله فقال: أول ما نبدأ به أمثال رسول الله ﷺ ثم أمثال العلماء ثم أمثال أكثم بن صيفى وبزرجمهر الفارسى وهى التى كان يستعملها جعفر بن يحيى فى كلامه ثم أمثال العرب التى رواها أبو عبيد وما أشبهها من أمثال العامة، ثم الأمثال التى استعملها الشعراء فى أشعارهم فى الجاهلية والاسلام . . وقد قسم هذه الأمثال إلى ١٨٢ موضوع أو جزئية صغيرة وكلها تقع تحت عناوين كبيرة هى: أمثال الرسول ص ٦٣، أمثال العلماء ص ٦٦، أمثال أكثم بن صيفى وبزرجمهر ص ٧٦ أمثال العرب مما روى أبو عبيد ص ٨١، أمثال الرجال واختلاف نعوتهم ص ٩١، أمثال الجماعات وحالتهم ص ٩٩، الأمثال فى القربى ص ١٠١، الأمثال فى مكارم الأخلاق من ص ١٠٤ : ١٣٦، أمثال مستعملة فى الشعر ١٤٠ . .

من هذه الإشارات السابقة يمكن أن نتوقف عند قول الميدانى أنه بعد أن جمع ستة آلاف مثل أضاف إلى ذلك قوله «والله أعلم بما بقى فإن أنفاس الناس لا يأتى عليها الحصر» بمعنى أن الأمثال كثيرة مثلها مثل أنفاس الناس التى لا يجرى عليها الحصر، وهذه الإشارة كانت كفيلة بدفع العلماء إلى تسجيل هذه النصوص الطائفة والمثبوتة التى تزيد على عشرات الآلاف فى هذه القرون الكثيرة . .

(١) العقد الفريد/ أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى ت ٣٢٧هـ طبع لجنة التأليف والترجمة ١٩٦٥ / وشرح/ أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبيارى/ ص ٦٣ : ١٤٠ ج٣ .

ونحن نتوقف ثانيا عند قول ابن عبد ربه الأندلسى عن الأمثال أن العرب تخيرتها، وأنها - أى الأمثال - أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة ولم يسر شىء سيرها ولا عم عمومها» وهى إشارة تتسم بالذكاء وتعنى أنه إذا كان الشعر ديوان العرب فإن الناس يؤثرون الأمثال وأنها أكثر التصاقا وأبقى بين الناس من الشعر مما يعنى أنها تسير بين كافة فئات الناس دون استثناء بينما يقتصر انتشار الشعر على شريحة خاصة داخل المجتمع .

\* \* \*

### الامثال المصرية بين القديم والجديد:

نحن نعتقد أن المنظومة الفكرية المصرية عبارة عن نظام ممتد، ولا يتكون من طبقات فوق بعضها - كما ينادى البعض - ذلك أن الطبقات عبارة عن شرائح أو صفائح أو رقائق فوق بعضها تتميز وتختلف مثلما هو كائن فى الطبقات الصخرية التى يمكن رؤيتها بوضوح عندما تنشط كتلة ضخمة من الجبل فتبين الطبقات بوضوح فى شرائح: إحداها صفراء يميل إلى الأبيض والأخرى خشنة لونها ترابى وثالثة واضح عليها عوامل التعرية بالتآكل ورابعة متماسكة وهكذا، بينما نجد أن المنظومة الفكرية المصرية عبارة عن بناء فكرى مصرى أشبه ما يكون بالشجرة الممتدة من الجذور إلى الأوراق وتعيش على مصدرين أساسيين هما التربة والماء، أو المصدر الفرعونى القديم والمصدر الإسلامى الموجود منذ أربعة عشر قرنا حتى اليوم ويمكننا أن نلاحظ هذه الظاهرة فى نصوص الأمثال أو فى تلك الحكمة السائرة بين الناس وتنتقل إلى سلوكهم بتلقائية . . ومقارنة بسيطة بين مجموعة من الأمثال تؤكد هذه الحقيقة . .

\* يقول النص القديم: من استحل حقوق الناس حراما أخذ الحرام معه الحلال وذهب<sup>(١)</sup>.

ويقول النص الحديث: جبت الحرام على الحلال يكبره قام الحرام خد الحلال وطيره . .

(١) الحكم والامثال عند المصريين القدماء/ محرم كمال - المكتبة الثقافية ص ٢٦ .

\* ويقول النص القديم: أن الكلمات التي يقولها الناس شيء والأشياء التي يفعلها الله شيء آخر<sup>(١)</sup> ..

ويقول النص الحديث: أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد.

\* ويقول النص القديم: والرب هو الذى خلق الانسان ويقدر له نصيبه فى الحياة<sup>(٢)</sup> ..

ويقول النص الحديث: اللى خلق الأحنك متكفل بالأرزاق

وإذا أردنا تتبع هذا فاننا سنجد نصوصا كثيرة فى هذا الاتجاه ..

أما المصدر الاسلامى والعربى فاننا نعيش به فى أنفسنا كأفراد وجماعات ونسمعه فى كل مكان مما يمكن أن يكون محل دراسة مستقلة .. ولكننا فى هذا المجال نكتفى بتلك الأمثال التى لها علاقة بالقضايا الاجتماعية والسلوكية.

فقد جاء فى كتاب «العقد الفريد»<sup>(٣)</sup> مجموعة من الأمثال التى لا تختلف عن الأمثال السائرة بيننا حتى الآن ومن ذلك:

### المثل الحديث

أبعدوا حبة تزيدوا محبة

داين تدان

ساعده القضا يعمى البصر

القناعة كتر لا يفنى

الغنى غنى النفس

المنوع مرغوب

لكل مقام مقال ولكل سؤال جواب

أعمى قلب

العادة طبع ثانى

الغايب حجته معاه .. إلخ

### المثل القديم

تباعدوا فى الديار وتقاربوا فى المحبة

كما تدين تدان

إذا زل القدر عمى البصر

القناعة مال لا ينفذ

خير الغنى غنى النفس .

كل ممنوع مرغوب فيه

لكل مقام مقال

شر العمى عمى القلب

العادة طبع ثان

الغايب حجته معاه

(١) الحكم والأمثال عند المصريين القدماء/ محرم كمال/ المكتبة الثقافية/ ص ١٢٢ ..

(٢) العقد الفريد/ ابن عبد ربه الأندلسي/ مصدر سابق.

أما فى كتاب المستطرف «للأبشيهى»<sup>(١)</sup> فهناك العديد من الأمثال الشعبية مازالت  
منتشرة حتى الان نذكر منها:

### المثل الحديث

يا غزالة الأقمار إيش حاشك بالنهار  
نواية تسند الجرة قال: وتسند الزير الكبير  
لولاك يا لسانى ما انسكيت يا قفاى  
شرا العبد ولا تربيته  
ضربتى فى الراس توجع  
ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى

### المثل القديم

\* يا غزالة الأقمار أين كنتى بالنهار  
\* نواية تسند الجرة وتسند الزير الكبير  
\* لولاك يا لسانى ما انسكيت يا قفاى  
\* شرا العبد ولا تربيته  
\* ضربتى فى الراس تعمى  
\* ضرب وبكى وسبق واشتكى

وهذا يشير إلى أن الكثير من الأمثال العربية القديمة مازالت تلعب دورا واضحا  
فى حياة الناس بل أنهم يرددون الأمثال بنصها القديم منذ مئات السنين وهو ما  
يؤكد أن الثقافة المصرية لم تتكون من طبقات منعزلة تجمدت عند مستوى معين  
ولكنها أفكار ممتدة من الماضى البعيد والقريب إلى الحاضر المعاش، ولاشك أن  
المصدر العربى يمثل نهر النيل فى تدفقه يغذيه جدول فرعونى.

\* \* \*

### الدور الوظيفى للمثل وعلاقته بالشخصية:

أحيانا يسبق المثل التقديم المناسب فيقال: «صدق من قال» وهو ما يعنى أن  
الأمثال عبارة عن قطع من الحكمة الصادقة والمؤيدة لضارب المثل أو ما يريد أن  
يقوله، ويقال أيضا «على رأى المثل»، وهو ما يعبر عن اعلان باتجاه الرأى المثلى  
أو تصديق له أو إيمان بما يقوله وهو بلغة القانونيين أسانيد للرأى، وما يعنى أيضا  
أن الأمثال تعبر عن اقتناع القائل بمضمونها مما يمكن أن يكون المثل كوحدة مفردة  
محل دراسة مستقلة. . وكيف يكون الحال إذا وضعنا الأمثال بجانب بعضها فى  
وحدة فكرية واحدة إننا بذلك نستطيع أن نرى التيار الفكرى الخفى الذى يحرك  
الناس ويكشف الدوافع وما هو كامن فى الشخصية. . ومما لاشك فيه أن معرفة

(١) المستطرف فى كل فن مستطرف/ ج١.

النفس أو معرفة المجتمع من الأمور الشاقة وخاصة بالنسبة للمجتمع المصرى، وهذه الأمثال هى أحدى بل أهم وسائل الاقتراب الحقيقية من الشخصية المصرية لأنها:

أولاً: تعبر عن فلسفة مجتمع بشكل صريح وتلقائى وهى ليست ثقافة ساذجة - كما قد يدعى البعض - ولكنها عندما تأتى عفو الخاطر إنما تحمل خبرات ثقافية اختزنها اللاشعور عن طريق المعاشرة والسماع وتطفو على السطح عند الحاجة..  
ثانياً: تسيّر بين جميع طوائف الشعب دون استثناء مما سوف نشير إليه فيما بعد..

ثالثاً: ترتبط بالإيقاع اليومى بين الناس فى نشاطاتهم وحتى فى أوقات راحتهم ولا ينصرفون عن هذه النصوص إلا عندما يركنون إلى النوم..  
رابعاً: هذه الامثال تحمل كافة القيم الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية، كما أنها ذات حيوية شديدة فى الربط بين الماضى وإيقاع الحاضر وتؤدى دورها الأخلاقى والتوجيهى..

خامساً: هذه النصوص تعبر عن نوعية الثقافة الشعبية المازجة بين كافة الطوائف، وتكاد تنفرد بهذه الخاصية على سائر ألوان التعبير الشعبية لأنها تعبيرات سارية فى كل الأوقات وفى مختلف الأماكن والأزمنة وهو مالا يتوافر لسائر النصوص الشعبية التى لا تظهر إلا فى المناسبات المتباعدة ولكنها فى كل الاحوال لا تظهر بشكل يومى كما يحدث مع الأمثال، وهو ما يميز الامثال عن غيرها فضلاً عن ارتباطها بمشاكل الناس الحياتية فى جانبيها المادى والروحى..

سادساً: هذه النصوص عبارة عن شواهد ثقافية على القيم السائدة كالعادات والتقاليد والأعراف وتقوم بدور الموجه العام للسلوك أو هى دستور للعلاقات القائمة بين الإنسان الثلاثة فى المجتمع وهى الفرد والجماعات كوحدة والمجتمع ككل، وهى فى النهاية تعبر عما ينبغى أن يكون بشكل عام، ولذلك فهى تقوم بدور توجيهى بالنقد أو السخرية أو التحذير، وباختصار فهى المدخل الحقيقى لدراسة الشخصية المصرية التى لم تخضع للدرس حتى الآن..

وفى هذا المجال من المفيد أن نفرق بين شخصية مصر والشخصية المصرية، فشخصية مصر يمكن أن تظهر ضمن المتابعة التاريخية وشخصية مصر يمكن الكشف عنها عن طريق الجغرافيا أو التاريخ أو السياسة كما فى موسوعة شخصية مصر التى كتبها د. جمال حمدان، ويمكن حصر ذلك من متابعة فهرس الأجزاء الثلاثة وهى كالاتى:

\* الجزء الأول: ويقع فى ٨٤١ صفحة ويتحدث عن:

- شخصية مصر الطبيعية - من الجيولوجيا إلى الجغرافية
- الصحراوات - وادى النيل

\* الجزء الثانى: ويقع فى ١٠١٨ صفحة ويتحدث عن:

الباب الأول:

- شخصية مصر البشرية - التجانس ويشمل التجانس الطبيعى
- التجانس المادى - التجانس العمرانى
- التجانس الحضارى - التجانس البشرى

الباب الثانى: الوحدة السياسية - من السبق الحضارى إلى التخلف من الطغيان الفرعونى إلى الثورة الاشتراكية ..

الباب الثالث: شخصية مصر السياسية - من إمبراطورية إلى مستعمرة الاستعمار الأوروبى الحديث - شخصية مصر الإستراتيجية.

الباب الرابع: قلب العالم - موقع مصر الجغرافى - هبة النيل

\* الجزء الثالث: ويقع فى ٩٧٣ صفحة ويتحدث عن:

• الباب الأول: شخصية مصر الاقتصادية: خريطة الاقتصاد المصرى - الزراعة المصرية من الخريطة إلى التخطيط - من التوسع الرأسى إلى الإفقى - مصر الصناعية - صناعات مصر - الصناعات الزراعية الأم - صنع فى مصر - من الصناعات الكيماوية إلى المعدنية ثروتنا المعدنية وصناعة التعدين ..

• الباب الثانى: خريطة المجتمع المصرى (كثافة بلا هجرة - مركزية رغم الإمتداد) ..

## • الباب الثالث: آفاق الزمان وأبعاد المكان . .

تعدد الأبعاد - التوسط والاعتدال - الإستمرار والانقطاع . .

### • الباب الرابع: مصر والعرب

بين الوطنية المصرية والقومية العربية - مصر فى عالم عربى متغير

هذا وقد كتب د. جمال حمدان فى موضوع الشخصية الإقليمية ص ٣٢ يقول:

«أنها دراسة عن شخصية مصر لا المصريين - عن شخصية مصر لا الشخصية المصرية» بمعنى أن مادة هذه الموسوعة هى دراسة لشخصية مصر البلد أما الإنسان ككائن حى ضمن مجتمع فيحتاج إلى دراسات أخرى يمكن أن تكون مكملة لدراسة شخصية مصر التى كتبها د. جمال حمدان . .

وفى هذا المجال يمكن أن نقول أن الجغرافيا والتاريخ يدخلان ضمن العوامل المؤثرة فى الشخصية ولكنهما لا يكونان الشخصية. ذلك لأننا إذا قلنا إن المكان هو المكون للشخصية فاننا نقول أن الأرض الأمريكية هى التى كونت الشخصية الأمريكية، والأرض الألمانية هى التى كونت الشخصية الألمانية والأرض الإيطالية هى التى كونت الشخصية الإيطالية وهكذا - وبناء على ذلك فإن الذى يعيش على أرض معينة لابد أن يتقدم أو يتأخر تبعا لموقع الأرض وهو المبدأ الذى يروج لمقولة «الشرق شرق والغرب غرب ولا يلتقيان» أو «الشمال والجنوب»، وهو تفكير عنصرى أحادى النظرة يدعو إلى التميز الأبدى، وهذا الرأى عبارة عن مغالطة كبرى فالجغرافيا عبارة عن مكان فوقه طبقات جوية يعيش عليه جماعة من البشر وهذه الظواهر ثابتة منذ عشرات الآلاف من السنين . . بينما نجد أن الحضارات تنتقل من مكان إلى آخر ولم يحدث طوال التاريخ البشرى أن توطنت الحضارة فى مكان واحد، وفضلا عن ذلك فإن البشر فى المكان الواحد يتعرضون طوال تاريخهم لفترات من التقدم والتأخر وليس للمكان تأثير كبير فى هذا الشأن وهو ما يجعلنا نقول «أن البشر هم أساس الحضارة» . .

وهذا ما يدعونا إلى أن نستكمل ما بدأه جمال حمدان بأن ندرس السكان أو البشر كجماعة تعيش وتتحرك وهم الأساس والعنصر المحرك للحضارة. ونحن نؤكد أن الثقافة السائرة هى المدخل الحقيقى إلى معرفة أبعاد الشخصية . .

قرأت فى بريد الاهرام ١٧/١١/١٩٩٤ رسالة طريفة بقلم د. فاخر محمود العسلى/ دكتوراه فى التخطيط الإستراتيجى ومقيم بولاية الينوى/ أمريكا - يقول فيها: «... ونحن فى مصر علينا أن نعيد إلقاء الضوء وبتركيز على خماسية التنمية لدينا، وأعنى بها: (نهر النيل وواديه + الصحراوات الشرقية والغربية وسيناء ٩٦٪ من مساحة مصر + البحر الاحمر والمتوسط + قناة السويس + ٦٠ مليون وحدة رأسمالية بشرية منتجة، إنها جميعا بحاجة إلى مشبك يضمها فى أجندة واحدة إستراتيجية.. فمن المعروف أن مصر بهذه الثروات الهائلة يمكنها دخول صناعة المستقبل من باب الإدارة العلمية التى صارت سلاحا فعالا فى معركة التكنولوجيا والتنمية المتواصلة، كما أننا بدون إدارتها واستقلالها لا يمكن لنا انتاج شروط التقدم فى المستقبل المنظور».

والواضح أن العناصر الأربعة السابقة كلها تتعلق بالمكان أما العنصر الخامس وهو «٦٠ مليون وحدة رأسمالية بشرية» فهو فى حاجة إلى دراسة مستفيضة، ولا شك أن نصوص الثقافة الشعبية ضمن مظاهر الفكر المصرى الأخرى يمكن أن تكون مؤثرة من خلال دراسة هذا الكم من الوحدات البشرية..

إن هذه النصوص المثلية تعطى فكرة واضحة عن الجذور الثقافية وعن العناصر الحقيقية اللازمة للتطور المناسب، كما أنها توثق الصلات بين الأجيال وتساعد على تقريب وجهات النظر بين مختلف الأطراف.. فضلا عن ذلك فهى إحدى النوافذ التى يطل منها الباحثون على نفسية الفرد المصرى ونفسية المجتمع، ثم هى تقول رأيا فى موضوع سائر أو تقدم حكمة مجربة أو تلقى ضوءا على موضوع بعينه أو تشد الإنتباه إلى تيار خافت، كما أنها - فى بعض الاحيان - تتحدث بصراحة قد لا يقبلها البعض كما تجسم الخطأ وهو ما يعد نوعا من التطهير الذاتى، وهذا هو أحد وجهى العملة..

أما الوجه الآخر - وهو ما يهم الدارس - فهو الكشف عن الجذور الخفية أو تفسير القضايا الكبرى فى النظام الاجتماعى كالانتماء والحضارة والدين والاسرة، والأمثال فى هذا المجال أيضا تبرز كرموز عظيمة الدلالة على الهوية والتاريخ والفكر.. وهذا ما يجب أن يدفعنا إلى الحفر عند جذور الشخصية.. ونحن

نعتقد أن هذه الحلقة - الثقافة الشعبية وعلى رأسها المثل الشعبي - هي أخطر الحلقات وأهمها فى دراسة الشخصية ذلك أنها حلقة غير مرئية رغم تواجدها بين الناس.. وقد أشرنا إلى بعض أسباب الانصراف عنها، ونضيف إلى ذلك أن أصحاب هذه الثقافة لا يعرفون شيئا عن أهميتها فهم من بسطاء الناس والغلابة والمساكين الذين يعيشون يوما بيوم ويلهثون وراء اللقمة اليومية، وفضلا عن ذلك فإن هذه النصوص هائمة وليس لها مكان يجمعها..

ومن ناحية أخرى فقد دخلت الأمثال إلى الذاكرة الشعبية وانتشرت بطريقة غير مقصودة، كما أنها تسترجع من الذاكرة بنفس الطريقة وعلى قدر تأثير المحيط يكون التأثير والانتشار ومن ثم يكون الاستظهار والدور.. وحتى الآن فإن هذه النصوص لا تنتقل عن طريق الدرس التقليدى. ونحن نعتقد أن بعضا من هذه النصوص لو دخلت ضمن بعض المناهج الدراسية وخاصة تلك الامثال التى تحت على العمل وتدعو إلى الإخلاق وتبرز الفضائل المرتبطة بالشخصية المصرية نقول لو تم هذا لأدت هذه النصوص دورا هاما فى الربط بين الأجيال وساعدت بشكل مباشر فى عملية التنمية والحراك الاجتماعى وحفظت الجيل الجديد من الإنهيار بالثقافات الوافدة أو السقوط فى الأعياب المعلومات المضللة..

\* \* \*

أشرنا إلى أن هذه النصوص تنتشر بين كل الطبقات وهى ليست قاصرة على فئة معينة أو تخصص طبقة، ونضيف فى هذه السطور القول بأنها تنتشر بين الطبقة الوسطى وطبقة المثقفين بنفس درجة انتشارها لدى الطبقات الدنيا إن لم تزد على ما لدى البسطاء من حصيلة، وهذا هو الغريب فى الأمر حتى أن جزءا هاما من مصدر هذه المجموعة هو الثقافة الإعلامية فى الصحف فكيف ذلك؟..

نحن نشير إلى أن المجتمع المصرى تقليدى النزعة يعيش فى بعض أحواله على ثقافات الماضى، وهؤلاء المثقفون وخاصة - جيل الخمسينات والستينات من العمر - هم أبناء الجيل الماضى - جيل ما قبل الحرب العالمية الثانية - وهو الجيل الذى تغلب عليه الأمية ومن ثم فقد استمد جيل المثقفين ثقافتهم القديمة من جيل الآباء من مواليد بداية القرن العشرين أو أواخر القرن التاسع عشر واخترنوها ومن ثم تعود

بين الحين والآخر فى كتاباتهم ومقالاتهم الصحفية، وهى تمثل بالنسبة لهم مددا فكريا لا ينضب وتحمل دلالات واضحة على القضايا التى يناقشونها وهى قضايا الحياة اليومية سواء كانت سياسية أو فكرية أو إجتماعية أو إقتصادية. . وقد أشرنا فى مقدمة الجزء الأول إلى بعضا من ذلك ولا بأس أن نشير إلى نماذج أخرى يمكن أن تكمل هذا الاتجاه وتدعمه وتبرز الدور الوظيفى لنصوص الإمثال على كافة المستويات:

فقد كتب دكتور/ رمزى زكى - مستشار بمعهد التخطيط مقالا بجريدة الاهرام يونيو ١٩٩٣ بعنوان «محاولة لتفسير حكمة مصرية قديمة وهى - الدين هم بالليل وذل بالنهار - وبعد أن شرح بطريقة بسيطة مشكلة الدين على المستوى الفردى وعلى المستوى الدولى يقول فى ختام المقال «.. وبعد أن نفذت للدائنين كل هذه الأمور يجب ألا تندهش إذا أمطرك الدائنون مدحا رغم أن وضعك المعيشى قد ساء بيد أنه لا يجب أن تلوم نفسك لأنك نسيت المثال الشعبى المصرى الذى جسده حكمة الأجداد والآباء عبر مئات السنين والذى كان يقول لنا «الدين هم بالليل.. وذل بالنهار» وهو ما يعبر عن رؤية اقتصادية لأحد أعلام الاقتصاد..

وجاء فى اهرام ١٢/١/١٩٩٣ فى حديث مع فؤاد سراج الدين رئيس حزب الوفد ما يأتى:

س: يصف البعض حزب الوفد بأنه حزب الزعيم الأوحد الذى يقدر على جمع أواصر الحزب والحفاظ على وحدته متماسكة ويربطه بتاريخه القديم فما رأيك؟

ج: كل الأحزاب فى العالم لها زعيم واحد ولا يمكن أن ينجح الحزب فى ظل زعيمين، والمثل العامى يقول «الركب اللى لها ريسين تغرق»..

وجاء فى مجلة أكتوبر ٢٠/١٢/١٩٩٢ ضمن مذكرات موشيه شاسون سفير اسرائيل فى مصر فى الفترة من ١٩٨١ - ١٩٨٨ فى كلمة ألقاها أمام د/ يوسف والى وزير الزراعة فى حفل أقامه لوداعه عند مغادرة مصر يقول فيها: «وواصلت حديثى أمام الوزير وطاغم وزارته والفلاحين المصريين» بقولى: «إن المثل المصرى

يقول «من شرب من ماء النيل عاد إلى مصر». وأنا هنا أودع مصر ولدى منها أصدقاء، وعند عودتي سأراها بالتأكيد وهي مستمرة في نموها وازدهارها وجريها قدما إلى الأمام..

ولاشك أن الاشارات السابقة تحمل دلالات كثيرة فهي لدى السياسى دليل عمل وقرار، ولدى الاقتصادى نصيحة، ولدى رجل الدين نصيحة، ولدى الصحافة حركة ثقافية يومية، ولدى الغريب وسيلة للتقرب وتبادل المشاعر والود أو وسيلة لحب الاستطلاع..

لقد صدر كتابى «الشعب المصرى فى أمثاله العامية» عن هيئة الكتاب ١٩٧٢ وأخذت أراقب حركة البيع وفى إحدى المرات سألت زميلى<sup>(١)</sup>. فى أحد مراكز البيع التابعة للهيئة فأخبرنى أن أول كمية بيعت من هذا الكتاب اشترتها مكتبة الكونجرس الأمريكى وأعطائى رقما لم أصدقه ولا داعى لذكره، وبعد فترة وجدت أن الاتحاد السوفيتى آنذاك اشترى كمية كبيرة أيضا.. وعلينا أن نلاحظ الظروف التى كانت تمر بها مصر فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر وموقفه من الكتلتين والصخب السياسى الذى كان موجودا على المستوى العالمى وكتلة عدم الانحياز وتحرير أفريقيا.. إلخ

ولا شك أن الهدف من الإهتمام بالكتاب واضح الاتجاه وهو الشخصية المصرية - وما يشد الانتباه أيضا أنه بعد عشرين عاما من صدور هذا الكتاب (١٩٩٢) ولم يكن لدى إلا نسخة وحيدة وكنت أتابع العثور على نسخة أخرى على سور الأزبكية - قبيل انتقاله إلى حى الحسين - حتى عثرت على نسخة أخرى معروضة على صدر إحدى المكتبات وبعد أن اشتريتها سألت البائع - وهو يعمل مفتشا للغة العربية - عن نوعية القارئ الذى يستهويه هذا الكتاب فقال: أن العرب هم أكثر احتفالا بهذا الموضوع وأيضا الاوربى المستعرب، ولاشك أن إنتباه الأجانب إلى هذه النصوص عبارة عن سلاح ذو حدين:

(١) عملت فى هيئة الكتاب منذ أنشائها وكانت بداية حياتى الوظيفية فى الادارة العامة للثقافة سنة ١٩٦٠ التى تحولت إلى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر وتحولت إلى هيئة الكتاب وتركتها إلى اتحاد الاذاعة والتلفزيون ١٩٧١ حتى تركت العمل الوظيفى فى ١٣ يناير ١٩٩٤. هذا فى مصر وقد كنت استاذ الأدب بجامعة الجزائر وقسنطينة بجمهورية الجزائر فى الفترة من ١٩٧٦ - ١٩٨٧.

أحدهما: الاهتمام الناتج عن الإعجاب أو حب المعرفة وخاصة بالنسبة لمجتمع يقع فى موقع فريد وله تاريخ عريق ويشير خيال البشر ويحرصهم على معرفة الأحماد..

الثانى: محاولة استكشاف ما فى داخل هذه النصوص من سلبيات وخاصة عند المفرضين أو المتورين أو المنافسين أو خدمة لـغراض سياسية أو اقتصادية وهذا ما يدفعنا إلى أن نقدم هذه النصوص ونفسرها ونحن أقدر على معرفة المغزى والهدف وعلى تقديم أنفسنا بأنفسنا..

وفى عام ١٩٩٣ دعيت للاشتراك فى أعمال المؤتمر السنوى السابع للبحوث السياسية الذى عقد بمركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة فى الفترة من ٤ - ٧ ديسمبر ١٩٩٣ وكان المؤتمر بعنوان «الثقافة السياسية فى مصر بين الاستمرارية والتغير» واشتركت فيه ببحث بعنوان «المفاهيم السياسية فى المثل الشعبى»، وفى إحدى فترات الاستراحة كنت أجلس مع د/ يونان لبيب رزق أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس وعرضت عليه فكرة أشارت إليها نصوص الامثال وتتمثل فى مفردات معينة هى: السيد/ العبد - الغنى/ الفقير - أمير/ غفير الست/ الخدامة - الحاكم المحكوم... إلخ وكلها تقطع بأن المجتمع المصرى يتكون من طبقتين، وأن الطبقة الوسطى ليس لها وجود فرد الدكتور يونان بقوله «وهذه هى مشكلة مصر الأزلية حتى الآن»، وقارن بين انطلاق اليابان عند اتصالها بالحضارة الحديثة لوجود طبقة وسطى امتلكت الزمام ووازنت بين الناس اللى فوق والناس اللى تحت بينما لا توجد هذه الطبقة فى مصر وهو ما يعيقها حتى الآن عن تقدم الصفوف.

وأعتقد أنه بقدر ما من التأمل سوف نجد أن هذه النتيجة أقرب إلى الصحة.. فعلى سبيل المثال فإن طبقة الفلاحين كلها كانت تحت خط الفقر ومعها طبقة الموظفين أو ما يدخل ضمن الطبقة الوسطى أما على الجانب التعليمى أو الثقافى فإن نسبة كبيرة، تتخلف فى هذا المجال وقس على ذلك فى كافة المجالات مما يقطع بوجود فوارق كبيرة، وهناك أيضا من يركب المرسيدس بـ ١,٦ مليون جنيهه وبجانبه مائة من الناس تنحشر فى أوتوبيس النقل العام القديم والذى لا يتعدى ثمنه أربعين الفا من الجنيهات بنسبة ٤٠٠٠ / ١ تقريبا..

وفى مجال المأوى أو السكن فتوجد الشقة التى بيعت بـ ٣٨ مليون جنيه سنة ١٩٩٥ دون التأتيت ويسكنها ثلاثة أو أربعة أفراد ومصريون آخرون ينحشرون فى حجرة ثمانية أفراد أو أكثر إيجارها ثلاثة أو أربعة جنيهات بنسبة ١ : ١٠ مليون أو أكثر من ذلك بكثير بعد التأتيت وتزيد النسبة إذا جرت المقارنة مع سكان الريف أو الصعيد..

وقد نشرت جريدة الأهرام ٣/٥/١٩٩٥ فقرة تحت عنوان «حلال لكن حرام» جاء فيها «كشف جهاز المحاسبات عن أن بعض الموظفين الكبار فى بعض الهيئات الاقتصادية يصل مرتبه إلى ٣٠ ألف جنيه فى الشهر بواقع ألف جنيه فى اليوم علما بأن هذا الموظف لم يسرق مليما واحدا من هذا المرتب، والجدير بالذكر أن متوسط دخل الفرد فى مصر فى الشهر حوالى ٢٥٠ جنيه إذن فى مقابل هذا الكبير ١٢٠ مواطنا يعيشون بلا دخل طبقا للارقام السكانية.. هذا الموظف يتقاضى يوم الإجازة دخل أسرة يعولها مدير عام بالدولة وإحنا عندنا ١٣٤ يوما إجازة فى السنة..

ونحن عندما نود هذه البيانات الدائرة فى الصحافة اليومية فى هذا المجال إنما نؤكد ما سبق الإشارة إليه من أن النصوص المثلية إنما تعبر عن ايقاع الحياة، هذا الايقاع الحياتى الذى ترصده الصحافة اليومية كتعبير عن الثقافة الشعبية والمدرسية فى آن واحد..

\* \* \*

### هذه الموسوعة:

لقد جمعنا فى هذه الموسوعة حتى الآن عشرة آلاف مثل أو عشرة آلاف فكرة مصرية صميمة من الذهب المحلى الخام الذى لا يحمل شوائب فكرية خارجية وهى ما تميز الهوية الوطنية عن غيرها.. ومن ناحية أخرى فإن عشرة آلاف نص ليست هى كل النصوص الشائعة فى المجتمع المصرى، فالصعيد بكامله بعيد عن الإمكانيات والأمر كذلك بالنسبة للطراف كالسواحل والصحارى وسيناء.. وهذه الأماكن لا يجمع نصوصها إلا الذين يعيشون هناك فهم أقدر على إنجاز هذا العمل..

ومع ذلك فيمكن القول أن هذه الموسوعة تعبر عن القطاع الكبير فى المجتمع

ويمكن أن تكون عنصر تحريض على الجمع واستكمال الرسالة ولو استطاع دارس آخر أن يستكمل هذا العدد بعشرة آلاف نص آخر لتوفر لدينا كم كبير من الثقافة المصرية التي تعبر عن فلسفة الفكر المصرى الصميم. . وإن مجرد تجميع هذه المادة الثقافية سوف يقود إلى بحوث ودراسات وهذا غاية أملنا إذا أردنا خدمة هذا الشعب. . فهذه النصوص تتوفر على كم كبير من الإشارات أو المداخل أو الشروط الحاكمة فى السلوك والضمير والمعتقد أو فلسفة الشخصية، كما يمكن أن تقود إلى دراسات فى علم الأدب واللغويات وغيرها. .

ومن جانبنا فقد قلنا فى السطور الأخيرة من كتاب «الشعب المصرى فى أمثاله العامية» «والواضح بعد كل ذلك أننا لم نقل كل ما تحدثت عنه الأمثال إلا أنها أشارت إلى دقائق حياة الشعب المصرى - الأصيل - على وجه التقريب. .

ومن هنا فإن الموضوع أكبر من أن يستوعبه كتاب كهذا لأنه يتعلق بحياة شعب عريق قديم قدم الحضارة التى عثر عليها الإنسان. ولعلنا بذلك نكون قد بدأنا الطريق ونضيف أنه حتى الآن فإن كل ما كتبناه فى هذا المجال هو محاولة للاقترب، ومع ذلك فإن الهدف فى المرحلة التالية - هو إخضاع هذه النصوص للدرس. .

ومن ناحية أخرى فقد سجلنا مع هذه النصوص بعض الشروح الضرورية لأنها تكشف الأدوار أو المناخ أو ما نسميه «بالمضرب»، وكل ما نهدف إليه هو إبراز الشخصية من خلال النصوص وإبراز الأمثال من خلال السياق العام ونحن نحاول تقديم شخصية المواطن العادية من خلال ظروفه. .

إن هذه الموسوعة هى الأولى التى حاولت اصطياذ هذا الكم من النصوص وتسجيلها مكتوبة لكى تنهض كدليل على الماضى المتفاعل مع الحاضر ودليل عمل للمصريين اللاحقين ونحسب أن هذه الموسوعة هى الوحيدة فى اللغة العربية التى احتوت على هذا الكم. .

كلمة أخيرة هى أقرب إلى الاستفهام أو محاولة المعرفة ويمكن إخضاعها للدرس وتمثل فى السؤال:

هل هناك فرق بين الأقوال السائرة أو التعبيرات السائرة والأمثال؟. .  
وفى هذا المجال يمكن أن نقدم رأياً هو أقرب إلى الاجتهاد ويتمثل فى أن التعبيرات

أو الاقوال السائرة التي لا تعطى معنى بمفردها بعد انتزاعها من سياق الكلام هذه الاقوال يمكن أن تكون محل درس لدى اللغويين بينما نلاحظ أن الجمل التي تؤدي معنى بذاتها أو ضمن السياق أقرب إلى الكمال أو الاستقلال هي الأمثال . . . وهى ما تدخل ضمن هذه الموسوعة وما يؤيد ذلك أن الأمثال قد تؤدي عدة تفسيرات وفى بعض الأحيان قد تحمل الجملة المثلية عدة معان وقد تستخدم فى أكثر من حالة لأن انفرادها ساعدها على اكتمال التكوين . . .

إن القول السائر والمثل السائر كلاهما يسير بين الناس . الأول يسير من خلال الحوار أو السياق العام والثانى قد يسير من خلال الحوار أو السياق وقد يتزع ويسير بمفرده ويصير كالحكمة التى تعبر عن فلسفة، وهناك مناطق تماس كثيرة بينهما وهى التى أوجدت الغموض والبلبله، ومع ذلك فإن القول السائر يمكن أن يتحول إلى مثل، وقد يجرى عليه الشعبيون بعض التعديلات المناسبة لكى يستقل بنفسه وهناك الكثير من النصوص التى تشير إلى ذلك ولكن لا يحدث العكس بمعنى أن القول السائر قد يتحول إلى مثل أما المثل فلا يتحول إلى قول سائر، ولكن فى مرحلة أخرى قد تنشطر الجملة المثلية إلى مثلين مستقلين . . . ومع ذلك فإن هذا الرأى يمكن أن يكون محل دراسة مستقلة . . .

وقفنا الله لخدمة مصرنا العزيزة...

دكتور

إبراهيم أحمد شعلان